

العلم في سورة النمل، دراسة بلاغية في السياق والمتشابه اللفظي

أ. خلود محمد المرشي*

اعتمد للنشر في ١١/٢٩/١٤٤٧هـ

سلم البحث في ١٠/٢٧/١٤٤٧هـ

ملخص البحث:

يتناول البحث موضوع العلم في سورة النمل بالتركيز على لفظ العلم وخصوصيته من خلال سياق الآيات ومشابهاتها اللفظية في سور أخرى. وتقوم مشكلة البحث على تصريف القول في معاني العلم من خلال الآيات وتناسبه مع بقية سياقات السورة، ومنزلته من مقاصدها. ويهدف البحث إلى بيان مقام العلم في السورة وأهميته، والوقوف على دقائق معانيه والتعبير عنه من خلال التركيز على السياقات والعلاقة بين المناسبات. ومنهجية في ذلك التحليل البلاغي المستند إلى نظرية النظم، وأدواته في ذلك الاستقراء، والوصف، والتحليل، والاستعانة بكتب التفسير والبلاغة واللغة. ومن نتائجه: التدرج في وصف العلم من الكلية إلى الجزئية وبينات ترابعية العلم. وتنوع التعبير من الوصف للفعل حسب مقتضى المقام، وتجلي خصوصية العلم اللدني في السورة من خلال التعبير بلفظ الإيتاء.

كلمات مفتاحية: سورة النمل، العلم، السياق، المتشابه اللفظي.

Abstract:

This research examines the theme of "The Science" in Surat al-Naml, focusing on the term's specificity through the Context of the verses and its Verbal Similarities in other Surahs. The research problem lies in the multifaceted articulation of the meanings of "Science" within the verses, its harmony with the Surah's broader contexts, and its status among the Surah's Thematic Objectives. The study aims to clarify the standing and significance of "Science" in the Surah, uncovering its nuanced meanings and modes of expression by focusing on Context and the relationship between thematic links. The methodology employs a rhetorical analysis based on the Theory of Construction, utilizing tools of induction, description, and analysis, while drawing upon authoritative Exegeses as well as rhetorical and linguistic references. Key findings include: A progressive gradation in the description of "Science" from universal to particular forms, illustrating the hierarchical structures of knowledge. The variation in expression—shifting from descriptive nouns to verbal forms—as dictated by the situational requirement. The manifestation of the unique nature of Divinely Inspired Knowledge in the Surah through the specific use of the term "Granting".

Keywords: Surat al-Naml, The Science, Context, Verbal Similarities.

* طالبة ماجستير، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، المملكة العربية السعودية.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد: فإن أشرف العلوم كتاب الله، وأسمى الدراسات ما تناولت آياته وسوره، وأعظم البلاغة بلاغته وبيدع نظمه، وإعجاز تعبيره وسبكه. ومن أدق ما عبّر عنه فيه العلم؛ بوصفه علمًا يُطلب من التشريع والأحكام وغيره من العلوم، ويكون القرآن الكريم علمًا بذاته، ولغته وبيانه. ولمّا كان له هذا التشريف والمكانة، تناول البحث موضوع العلم في القرآن الكريم واختير للدراسة منه سورة النمل؛ لتداول لفظ العلم فيها، ومكانته في السورة.

مشكلة الدراسة:

تتمحور الدراسة حول خصوصية معنى العلم في سورة النمل، استنادًا إلى تكرار لفظ العلم ونظائره في السورة تكرارًا ظاهرًا، حيث بلغت الآيات التي ورد فيها لفظ العلم أو المعرفة (١٤) آية، إضافة إلى ما ورد في السورة من ألفاظ مقاربة كالهدى والبصر، أو مضادة كالجهد والعمه؛ فكثافة حضور المعنى وتصريف القول في معانيه، والمناسبات بين مقاطع السورة وهذا المعنى، وخصوصيات السياق بين نظائره من المتشابه اللفظي، هي المنطلقات التي تشكلت منها أسئلة الدراسة على النحو التالي:

- ما المنزلة التي يتبوأها معنى العلم من مقاصد السورة وموضوعاتها؟
- كيف تصرف القول في السورة في معاني العلم وما يقابله؟
- ما المناسبات التي تربط بين سياقات العلم في السورة، وكيف تنتظم في نسق واحد؟
- ما خصوصية سياقات العلم بين نظائرها من المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، وما موقع هذه الخصوصيات من مقاصد السورة ودقائق ملابسات مقامها.

أهداف الدراسة:

- تقوم الدراسة على أربعة أهداف رئيسة، هي:
- بيان مكانة العلم وأهميته في البناء الموضوعي لسورة النمل، ومنزلته من مقاصدها.
- الكشف عن خصوصية سياقات السورة في التعبير عن معاني العلم وألفاظه، وما يقاربه أو يقابله.
- البحث عن العلاقات والمناسبات بين معنى العلم وموضوعات السورة التي تضمنته.
- الوقوف على شيء من دقائق المعاني ولطائف الإشارات في سياقات العلم بالنظر إلى خصوصياتها بين نظائرها.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث فيما يهدف إليه من خدمة القرآن الكريم، فإن شرف العلم تبع لشرف المعلوم، ومن أجل ما تعبد الله به عباده تدبر القرآن والوقوف على هداياته. إضافة إلى ما تمثله أي دراسة بلاغية تطبيقية جادة - وأرجو أن تكون هذه الدراسة كذلك - من إثراء لمكتبة البلاغة القرآنية، التي يستمد منها الدرس البلاغي في مراجعة مسائله واستكمال مباحثه.

ويعد البحث في وجوه تصريف المعنى، والمناسبات، وتوجيه المتشابه اللفظي من أجل مباحث البلاغة القرآنية وأدقها، وأقربها من الوقوف على دقائق المعاني ولطائف الإشارات المستتبطة بدلالة مستتبعات التراكيب.

الدراسات السابقة:

تناولت بعض الدراسات سورة النمل من جانب السرد، وتحليل الخطاب، والشخصيات، والإعجاز العلمي ونحو ذلك، مثل:

- أبو جزر، حسين موسى (٢٠١٥م) أسلوب النداء في الحوار القرآني سورة النمل نموذجًا: دراسة نحوية دلالية، مجلة جامعة الأقصى سلسلة العلوم الإنسانية، العدد الأول، المجلد ١٩، ١-١٤.

- الحربي، فايزة بنت أحمد مصلح (٢٠١٣م) جماليات المكان في سورة النمل، مجلة جامعة الطائف للعلوم الإنسانية، العدد ١٠، المجلد ٣، ٢٢١-٢٦٤.

- حسين، ضمير لفتة (٢٠١٦م) الصور المحتملة لشخصية النملة في القرآن الكريم: دراسة في منهج التحليل اللغوي، مجلة آداب البصرة، العدد ٧٨، ٣١-٤٦.

- الزهراني، منيرة بنت مرعي بن راشد (٢٠١٧م) البناء السرد في القصة القرآنية: قصص سليمان عليه السلام في سورة النمل أنموذجًا، حولية كلية اللغة العربية بالزقازيق، العدد ٣٧، المجلد ٢، ١٠٠٤-١٠٧٤.

والأمثلة على هذه الدراسات كثيرة، غير أنه لم تختص واحدة منها بتناول موضوع العلم أو دراسته بلاغيًا، وما جاء في بيان مقاصد السورة كان من قبيل دراسات علوم القرآن، المعنوية بتفسير الآيات وفقًا للتسلسل الموضوعي العام، دون تخصيص العلم أو التطرق له على وجه الخصوص. ولم يتوصل لدراسات ركزت على موضوع العلم في سورة النمل، أو تناولته في مضامينها إلا في ثلاث دراسات، هي:

- سعيد، نبيل محمد مرعي (٢٠١٨م) سلطان العلم في سورة النمل دراسة موضوعية، مجلة جامعة الملك خالد للعلوم الشرعية والدراسات الإسلامية، العدد الأول، المجلد

وهي دراسة ركزت على موضوع سلطان العلم بوصفه موضوعاً رئيساً، وأحد أهم مقاصد السورة، وعالجته معالجة تفسيرية من باب التفسير الموضوعي للسورة. ورجح التحليل فيها إلى كيفية ربط العلم بالواقع في بناء الممالك والسلطان، وصناعة القادة، وحل الأزمات، من خلال الاستفادة من قصص السورة، والبرهنة بها على هذا الربط. والخروج من ذلك بثمرات عامة للعلم، تستند على ما جاء من التفسير الموضوعي للسورة.

وتوجه البحث مختلف عن هذه الدراسة، فهو يختلف معها أولاً في المعالجة؛ إذ يتخذ التحليل السياقي لموضوع العلم القائم على الدرس البلاغي منهجاً، بينما انتهجت الدراسة السابقة منهج التفسير الموضوعي المعتمد على أسس التفسير القرآني لا البلاغي. ثم هو يختلف معها في حيثيات هذه المعالجة؛ فالدراسة السابقة ركزت على السلطان في توجيه معاني العلم أكثر من غيره وجعلته محور الدراسة، ودرست إمكانية انعكاسه على الحاضر والاستفادة منه في إدارة الواقع، بينما يتجه البحث إلى دراسة معاني العلم وألفاظه في السورة كافة حسبما يتصرف في السياقات، وفي ذلك تركيز على العلم بأنواعه لا في السلطان وحده، وشمولية معالجته وتحليله، وبهذا يختلف عما جاء في الدراسة السابقة.

- طاهر، عائشة (٢٠١٧م) سورة النمل دراسة بلاغية ودلالية، عين تموشنت: المركز بلحاح بوشعيب الجامعي.

تناولت الدراسة آيات متفرقة من السورة، في تحليل بلاغي مبسط حسب ضروب البلاغة المختارة من علوم المعاني والبيان والبديع، وغلب فيها التركيز على مستويات التحليل الدلالي. وطرحت موضوع العلم بوصفه مقصداً من مقاصد السورة، وخصصت نوعاً واحداً منه، وهو علم الغيب لله عز وجل.

وبعد الاطلاع عليها، لوحظ أن آيات العلم لم تحظَ باهتمام خاص، ولم يُشرح منها إلا ما كان متطلباً في بيان خصائص الأساليب وأثرها في المعاني، وكان الشرح يسيراً يكفي للمعنى العام دون تعمق أو توسع، ودون النظر في السياق وعلاقته بالعلم ونحوه. ولذا فإن البحث يختلف عن هذه الدراسة في كثير من التفاصيل؛ فهو يركز على العلم بينما لم تنتظر هي للعلم إلا بوجه يسير لا يذكر. وكلتا الدراستين تجتمعان في المجال البلاغي، لكنهما تختلفان في توجهه، فالبحث معني بتحليل المناسبات وتوجيه المتشابه اللفظي لآيات العلم في سورة النمل، بينما اتجهت الدراسة السابقة

لضروب محددة من البلاغة، في أجزاء من السورة لا كلها، والتركيز في التحليل على هذه الأساليب دون النظر في المعاني المتضمنة في سياقاتها، إضافة إلى وجود التحليل الدلالي بجانب التحليل البلاغي. وهذا يعني أن الدراسة السابقة كانت معالجتها للسورة عامة من جانبيين واسعين، بينما يتجه البحث إلى معالجة محددة متعمقة في جانب محدد، وفي هذا اختلاف كبير .

- العقيل، خلود بنت سعد (١٤٢٩هـ) الأساليب الإنشائية في سورة النمل، الرياض: كلية اللغة العربية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

وهذه الدراسة تناولت الأساليب الإنشائية في سورة النمل، وكسابقتها لم تتطرق لموضوع العلم في السورة إلا من حيث كونه مقصدًا رئيسًا لها، وما كان له علاقة بالأساليب محط الدراسة. وجاء التحليل فيها على أساس الأسلوب لا السياق، فكان الأسلوب هو محل العناية، ومجال النظر الأكبر، من خلال رصده في آيات السورة، وشرح المعنى المترتب على وجوده، والغرض منه. وفي هذا فرق جوهري بينها وبين توجه البحث؛ إذ إن السياق هو محل عنايته الأولى، ومنطلق التحليل والمعالجة، والمؤثر الأول في توجيه المعاني والألفاظ. ثم إن الدراسة السابقة لا تركز على موضوع، ولا تتخذ مصطلحًا كأساس بحثي، وإنما تتحرك في التحليل حسب الأساليب الموجودة في السورة، فيما يتحرك البحث في التحليل حسب موضوع محدد، من خلال سياقاته بما فيها من معانٍ، وألفاظ، وصور وتراكيب. وبالتالي يتحقق للبحث انفراده في معالجة سياقات العلم في سورة النمل، ومقارنته بمتشابهات اللفظ في السور القرآنية الأخرى.

منهج البحث:

تقوم منهجية البحث على التحليل البلاغي، المستند إلى نظرية النظم، وهو منهج يُعنى بتحليل صيغ الكلام وتراكيبه، وملابسات المقام، من خلال النظر في دلالات المعاني وتصريف القول فيها، وتوجيه المتشابه اللفظي. وأدواته في ذلك الاستقراء، والوصف، والتحليل، والاستعانة بكتب التفسير والبلاغة واللغة.

حدود البحث:

تركز الدراسة على موضوع العلم بوصفه المنطلق الرئيس لجميع إجراءات البحث، وهو محدود بسورة النمل؛ إذ هو أحد مقاصدها الأساسية، فلا يخرج البحث عنها إلا لما كان لغرض دراسي من أغراضه؛ من رصد للمتشابه اللفظي، وتحليله وفقًا لسياقاته. ويدرس البحث ألفاظ العلم الصريحة المكونة من الجذر اللغوي "عَلِمَ" و

"عَرَفَ" و "جَهَلَ"؛ باعتبارها الأصل في المعنى وما يقابله.

الهيكل العام للدراسة:

• مقدمة. وتتضمن: مشكلة الدراسة، وأهدافها، وأهمية البحث، والدراسات السابقة في موضوعه، ومنهج البحث وحدوده، وعناصره الأساسية.

• تمهيد: في البناء العام للسورة. وتحرير مصطلحات الدراسة.

الفصل الأول: سياقات علم الله عز وجل، وفيه:

المبحث الأول: التعقيب بصفة العلم.

تمهيد: في البناء العام للسورة. وتحرير مصطلحات الدراسة

يتمحور البحث حول سورة النمل من بين سائر سور القرآن الكريم، ويختص بموضوع العلم فيها لتداول ألفاظه ومعانيه في السورة في سياقات متعددة. ويعنى البحث بدراسة هذه الألفاظ في سياقاتها داخل السورة نسبة لسياق الآية المتضمنة لفظ العلم، وسيقاق الآية في السورة، ومقارنتها بسياقات مشابهاتها لفظاً في بقية السور. وللتفصيل في ذلك فُبَسِّم هذا التمهيد إلى ثلاث محاور رئيسية، توضح بعض الأسس وتوطئ لهذه الدراسة، فأولها الحديث عن سورة النمل في بيان نوعها وترتيبها، وسبب تسميتها، وموضوعاتها ومقاصدها، والجانب المعني منها بالدراسة. ثم الحديث عن العلم بوصفه مركز البحث ومتناوله في السورة، وبيان معناه ومتناوله، وأقسامه وأنواعه، والمختص منه في السورة والدراسة. وآخر المحاور تبيان المتشابه اللفظي، من حيث المعنى والأنواع، والمختار منها في هذه الدراسة. وتفصيل ذلك كالاتي:

أولاً: سورة النمل:

هي سورة مكية بالإجماع في كل آياتها،¹ البالغ عددها ثلاثاً وتسعين آية. وهي السورة الثامنة والأربعون من حيث التنزيل، والسابعة والعشرون في ترتيب المصحف. نزلت بين سورتي الشعراء والقصص، وهي متممة للأولى في موضوعاتها وسياقها. تسمى سورة النمل، وسورة سليمان، ولها تسمية ثالثة إذ تسمى سورة الهدد. ويرجع سبب التسمية لذكر قصة النمل وقصة الهدد فيها وحدها، وأما تسميتها بسورة سليمان فلأن قصة نبي الله سليمان عليه السلام أفردت فيها بذكر قصته وأخبار ملكه بإطنا ب دون سائر السور.²

¹ ينظر: محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (الرياض: عالم الكتب، ٢٠٠٣م) ١٣/١٥٤.

² ينظر: محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير (تونس: الدار التونسية للنشر، د.ت) ١٩/٢١٥.

موضوعاتها:

أولاً: تقوم السور المكية على العقيدة كموضوع أساس تدور حوله آيات السورة؛ لأنها نزلت في العهد المكي في قوم شرك، فكان التركيز على الجانب العقدي هو لبّ السورة ومحور موضوعاتها.

ثانياً: القرآن الكريم بوصفه معجزاً ببلاغته ونظمه، ورسالة النبي المصطفى ﷺ، حيث استفتحت السورة بالحديث عن تنزيل القرآن وهدايته. وفيما يأتي من مباحث تفصيل في هذا الجانب وعناية به كونه مرتبطاً بموضوع العلم في السورة.

ثالثاً: قصص الأنبياء، واختص منها قصة نبي الله سليمان عليه السلام في بيان سلطانه وعظيم ملكه.

رابعاً: التحدي بالقرآن، ومحاجة المشركين في بطلان ما يؤمنون به ويدينون له من آلهة وكهنة، والإخبار عن الساعة وأحوال القيامة، وإنذارهم بمآلهم يوم البعث.^١

مقاصدها:

المقصود الأعظم للسورة هو العلم، ويظهر هذا بعد اختتام سورة الشعراء بتحقيق أمر القرآن ومصدريته بأنه من عند الله، وليس من قبيل الشعر أو السحر، جاءت سورة النمل لتستكمل الحديث عنه بأنه الجامع للأصول، المحكم الذي لا فيه خلل ولا زلل، الكامل في كتابيته وقرآنيته، وهادي الخلق إلى سواء السبيل، ومبشر المؤمنين ومنذر الكافرين، وكل ذلك راجع إلى العلم المستوجب للحكمة، فكان بذلك هو مقصودها بما ورد فيها من أخبار ودقائق في حسن تدبير والسياسة والسلطان.^٢

ثانياً: العلم:

تعريفه:

من الجذر (علم) وهو نقيض الجهل،^٣ ويقاس على معنى العلامة، أي ما يعرف به الشيء على قياس (عَلَم).^٤ أما تعريفه اصطلاحاً ووصفاً فهو كثير، ومنه: "الاعتقاد الجازم المطابق للواقع" و"وصول النفس إلى معنى الشيء".^٥ وهو "تبيين

^١ ينظر: ابن عاشور، المرجع السابق. ٢١٥/١٩-٢١٦.

^٢ ينظر: برهان الدين أبو الحسن إبراهيم البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، ١٩٨٤م) ١٢٢/١٤-١٢٣.

^٣ ينظر: ابن منظور محمد بن مكرم، لسان العرب (بيروت: دار صادر، د.ت) ٤١٧/١٢.

^٤ ينظر: أبو الحسين أحمد بن فارس، مقاييس اللغة (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٧٩م) ١٠٩/٤.

^٥ الشريف علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، ط٢ (بيروت: دار الريان للتراث، ١٤٠٣هـ) ١٩٩.

المعلوم على ما هو به" ١. ويمكن القول بأن مدار كل ما عُرِف به هو الإدراك؛ إدراك حقيقة الشيء ومعناه. ويختلف تأويل المعنى بحسب نوع العلم ومصنّفه، فلكل علم من العلوم تعريف يختص به ويميّز به عن غيره من العلوم.

والتفصيل في موضوع العلم طويل ومتشعب، إذ حمله العلماء بحسب اختصاصهم على معانٍ متعددة، وأقسام مختلفة، وجعلوا له مراتب وأنواعًا وطرقًا. والحديث في ذلك طويل لا تحتمله الدراسة، فالمعنى بموضوع العلم منها هو ما كان من تقسيم العلم إلى علم الخالق وعلم المخلوقين، وجانبه في حال التلقّي من هداية وضلالة، وعلى أساس ذلك

أنواعه:

أجل أنواع العلم وأعظمها هو علم الله عز وجل، وكلّ علم دون علمه ناقص، وفي السورة تبيان لبعض علمه سبحانه. أما غيره من أنواع علم المخلوقين فيمكن تلخيصها على حسب مصدرها في ثلاث أنواع رئيسة:

١. العلم الإلهي: هو العلم الذي مصدره الله عز وجل، أي علم الوحي كعلم الأنبياء والرسل، ومنه العلم اللدني وهو العلم الذي يؤتيه الله عباده إما فهمًا أو إلهامًا، كالأنبياء والصالحين ممن اختصهم الله بهذا العلم مثل الخضر. ٢.

٢. العلم الضروري: وهو العلم الحاصل بالضرورة والبديهة من غير اجتهاد ولا إعمال للعقل.

٣. العلم النظري: وهو ما احتاج إلى النظر والاستدلال والتأمل والتجربة، ومن ذلك سائر العلوم الدنيوية مما يقوم على البحث والتجربة. ٣.

مراتبه:

يُدرج العلم في مراتب عديدة، جعلها بعض العلماء أربعًا، وجعلها البعض ستة، إلا أنّ ما استخلص منها يمكن عدّه على ثلاث مراتب رئيسة، هي:

١. اليقين: وهو العلم الذي لا يخالطه شك. ٤ وفي باب الشريعة هو الاطمئنان لما

١ أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله، البرهان في أصول الفقه (الدوحة: مطابع الدوحة الحديثة، ١٣٩٩هـ) ١١٥.

٢ ينظر: تقي الدين أحمد بن تيمية، مجموعة الفتاوى، ط ٣ (المنصورة: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥م) ١٣/١٣١. وابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين (الرياض: دار الصميعي للنشر والتوزيع، ٢٠١١م) ٤/٢٦٥٨-٢٦٦٤.

٣ ينظر: أبو بكر محمد بن الطبيب الباقلائي، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ١٩٨٧م) ٢٦-٢٨.

٤ الجرجاني، مرجع سابق. ٣٣٢.

غاب عن الإنسان بناء على ما وقر في القلب من الإيمان. وله ثلاث منازل: علم اليقين وهو العلم بالشيء، وعين اليقين وهو كرؤيته، وحق اليقين وهو كمباشرته وإدراكه إدراكاً تاماً. والأخيرة أعلاها وأكملها. ١

٢. الظن: هو رجحان الاعتقاد بأحد الأمرين مع احتمال نقيضه. ٢ فإن ارتفع رجحان أحدهما اعتلى إلى منزلة اليقين، وإن تساوى الاثنان نزل إلى مرحلة الشك.

٣. الشك: وهو التردد بين أمرين دون رجحان أحدهما على الآخر، ٣ وهو نقيض اليقين. وقد يحمل أحياناً على معنى التكذيب، وفي السورة ما يجيء على هذا المحمل من تكذيب يوم البعث وتكذيب الرسل.

ثالثاً: المتشابه اللفظي:

تعريفه:

مأخوذ من الجذر اللغوي: (شَبَّهَ)، وعرفه ابن فارس بأنَّ: "الشين والباء والهاء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على تشابه الشيء وتشاكله لونهاً ووصفاً". ٤. و"الشبه: المثل، والجمع أشباهٌ. وأشبه الشيء الشيءَ: ماثله". ٥. "وتشابهها واشتبهها: أشبه كلُّ منهما الآخر حتى التباساً". ٦. "واشتبهت الأمور وتشابهت: التبست لإشباها بعضها بعضاً". ٧. وعليه فإن المتشابه هو ما كان مثيلاً لغيره في الصورة أو الوصف وغيره مع وجود الالتباس، وهذا ينفي المطابقة؛ لأن التشابه معنيٌّ به الاختلاف في جزء من الصفة ونحوه، والاختلاف هو قرينة التفرقة بين المتشابهين. واللفظ: "طرح الشيء؛ وغالب ذلك أن يكون من الفم. تقول: لفظ بالكلام يلفظ لفظاً". ٨. وهو الكلام: "ولفظ بالشيء يلفظ لفظاً: تكلم". ٩.

وباب المتشابه اللفظي في القرآن، مختلف عن المتشابه في باب العقائد أو

١ ينظر: ابن قيم، مرجع سابق. ٢٣٨١/٣-٢٣٩٩.

٢ الجرجاني، مرجع سابق. ١٨٧.

٣ الجرجاني، مرجع سابق. ١٦٨.

١ مرجع سابق. ٢٤٣/٣.

٥ ابن منظور، مرجع سابق. ٣٠٥/١٣.

٦ محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس (الكويت: مطبعة حكومة الكويت، ٢٠٠١م) ٤١١/٣٦.

٧ أبو القاسم جار الله محمود الزمخشري، أساس البلاغة (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م) ٤٩٣/١.

٨ ابن فارس، مرجع سابق. ٢٥٩/٥.

٩ ابن منظور، مرجع سابق، ٤٦١/٧.

الصفات، وأفرد بالتصنيف والدراسة لاتصاله بإعجاز النظم القرآني، وبما يثيره من قضايا السياق وعلاقة اللفظ بالمعنى وتنوع التعبير القرآني. ومن ذلك ما عرّفه بعض العلماء بأنه تكرار القصة الواحدة في عدة صور وفواصل مختلفة،^١ وما يقع في هذه الفواصل من اختلاف كالتقديم والتأخير ونحوه.^٢ وهو في القرآن غير محصور على جانب القصص، وإنما أريد بذكره التمثيل بالجزء على الكل، فهو في القرآن كثير، ومن ذلك قول الطبري عن الآيات المتشابهات: "متشابهات في التلاوة، مختلفات في المعنى".^٣

وبناء على ما تقدّم يمكن تعريف المتشابه اللفظي بأنه الآيات المتكررة في القرآن الكريم أو المتشابهة في النظم والمختلفة في السياق والمعنى، والتعبير عنها بأساليب متنوعة من حيث الحروف أو المفردات أو الجمل، بما يحكمه السياق وتقرره المقاصد.

أنواعه:

الاختلاف في المتشابه اللفظي من حيث الأسلوب كثير، منه: التقديم والتأخير، والذكر والحذف، والتعريف والتكثير، والإفراد والجمع، والإبدال، والإدغام وتركه.^٤ وأمثلة ذلك في القرآن كثيرة مما يستفاض في شرحه، وذكر هذه الأنواع على سبيل العدّ لا الحصر، وضبطها من المسائل التي قد يُختلف فيها. وما استند عليه البحث في ضبط المتشابه هو الرجوع إلى المؤلفات المحدثّة، والاعتماد عليها في حصر الآيات المشابهة لفظاً لآيات سورة النمل محل الدراسة، خاصة تلك المعنية بضبط المتشابه للحفاظ، وحصره لغرض الدراسة القرآنية.^٥ وأهمية هذا الجانب تتمثل في شرف دراسة القرآن الكريم، والاشتغال بتعلمه وفهمه، وتيسير حفظه وتدبره، والتأمل في إعجاز تعبيره ودقائق معانيه في مناسبة المقام ومقتضى السياقات. ومما يذكر أن ما أُلبف فيه من مؤلفات قديمة كان من قبيل التفسير البلاغي أو البياني، ثم انتقلت

١ بدر الدين محمد الزركشي، البرهان في علوم القرآن (بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٠م) ٢٠٧/١.
جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن (بيروت: مؤسسة الرسالة ناشرون، ٢٠٠٨م) ٦٤٢.

٢ ينظر: أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي، الكليات، ط ٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٨م) ٨٤٥.

٣ جامع البيان عن تأويل آي القرآن (القاهرة: دار هجر، ٢٠٠١م) ١٩٢/٥.

٤ ينظر: الزركشي، مرجع سابق. ٢٠٧/١-٢٢٣. والسيوطي، مرجع سابق. ٦٤٢.

٥ المرجع المعتمد: سراج صالح ملائكة، دليل الآيات متشابهة الألفاظ، ط ٥ (الرياض: ٢٠٠٧م).

الدراسات الحديثة والبحوث العلمية إلى توجيهه حسب العلوم كعلم المعاني وعلم البيان ونحو ذلك.

الفصل الأول سياقات علم الله عز وجل

مدخل:

يتناول هذا الفصل علم الله - عز وجل - في سورة النمل، وتصرفه في السياقات، واختلاف صيغته من حيث الوصف والفعل. والله سبحانه ثلاثة أسماء في العلم، هي: العالم، والعليم، والعلّام. والأخيران جاءا على أوزان المبالغة. وجاء منها في السورة اسم الله "العليم" في موضعين، وورد في القرآن في مئة وخمسة وخمسين موضعاً غير هذين الموضعين. وله سبحانه أسماء دالة على العلم باختلاف نوعه، مثل السميع، والبصير، والمحيط والخبير، ولم يرد منها في السورة إلا الخبر في موضع واحد.

والعليم هو الذي علّم علماً، والعالم من كان من قوم علماء، والعلّام أو العلّامة في المبالغة بوصف العلم.^(١) والخبير هو بمعنى العليم، لكنّه مختص بالخفي والدقيق منه، فهو العليم بالبواطن والضّمائر والخفيات مهما بلغ صغرها ودقّها.^(٢) ووصف الله تعالى بالعلم يعني أنّه ذو علم بما ظهر وما بطن، وما أسرّ وما أُعلن، وبالعوالم والأزمنة كلّها، وعالم بما كان وما يكون، وما هو كائن وما هو غير كائن، وعلمه كامل تامّ من غير تعليم، شامل للأمور صغيرها وكبيرها، ودقيقها وجليلها. وصفة العلم ثابتة له في ذاته، لا يسبقها جهل، ولا علم يشغله عن علم، وتقتضي هذه الصّفة فعل العلم، وهو ثابت في حقّه سبحانه ثبوت الصّفة.^(٣) وفي دقائق التعبير عن معنى علم الله - عز وجل - إشارات جليّة، تتجلى في خصوصيات السياقات وما ارتبط بها من وجوه تصريف الكلام، وعلاقتها بمقصد السورة الأعظم، ومنزلتها من مقاصد القرآن في التربية الإيمانية وترسيخ العقيدة.

(١) ينظر: محمد الحمود النجدي، النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى، ط٢ (الكويت: مكتبة الإمام الذهبي، ٢٠٠٩م) ١٥٠.

(٢) ينظر: المرجع السابق. ١٨٦-١٨٨. وعبد الرزاق عبد المحسن البدر، فقه الأسماء الحسنى، ط٢ (الرياض: دار التوحيد، ٢٠٠٩م) ١٦٥، ١٦٦.

(٣) ينظر: الحسين علي البيهقي، الأسماء والصفات (القاهرة: دار الحديث، ٢٠٠٥م) ١٣٥-١٤٦. والنجدي، مرجع سابق. ١٥٠-١٥٧. وعبد الهادي حسن وهبي، الأسماء الحسنى والصفات العلى (الجبيل: دار الدليل الأثرية، ٢٠٠٧م) ٤١-٤٤.

وآلية دراسة ذلك في تتبّع الآيات المتضمنة أوصاف الله وأسمائه في العلم، من خلال سياقات السورة، واستقراء معانيها حسب السياقات والأساليب البلاغية المشتمة عليها. فتكون الأولوية في فهم الآية من حيث معانيها الخاصة، وتحليل ألفاظها ومفرداتها المتعلقة بمعنى العلم فيها، ثم إلحاقها بسياقها التي وردت فيه وعلاقته بموضوعها. وتنقسم إلى قسمين بحسب نسبة العلم لله سبحانه، فالمبحث الأول يتناول الصفات الثابتة في حقه تعالى، والمبحث الثاني يتناول أفعال الله - جلّ جلاله - المتضمنة حكم العلم ومقتضاه.

المبحث الأول

التعقيب بصفة العلم

وردت في سورة النمل آيتان مخصصة بوصف العلم في حقّ الله - عزّ وجل - بلفظ العلم، وكلتاها على سبيل التعقيب لا الاستفتاح؛ أي أنّها ذُكرت في خواتيم الآيات لا مطلعها، وتعقيباً في نهاية كلّ سياق على ما تضمنته السياق. وفيما يأتي تفصيل في معاني هذه الآيات، وشرح لسياقها وموقع العلم منه.

• آيات المبحث:

- الجمع بين الحكمة والعلم: ﴿وَإِنَّكَ لَتَلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (سورة النمل: الآية ٧).
- الجمع بين العزّة والعلم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (سورة النمل: الآية ٧٨).

أولاً: الجمع بين الحكمة والعلم:

يقول الله تعالى في مفتتح السورة: ﴿وَإِنَّكَ لَتَلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾، فسّر العلماء هذه الآية على أنّ الخطاب فيها للنبي - صلّى الله عليه وسلم -، بما معناه: أنّك يا محمد تلقن القرآن وتأخذه من الله ذو الحكمة والعلم، الذي تجلّت حكمته وعلمه في هذا القرآن، وشمل علمه دقيق الأمور وعظيمها، من مصالح الخلق وأخبارهم، وأحوالهم وما كان من أمورهم. ^(١) والآية موعظة في سياق افتتاح السورة من ذكر القرآن وآياته، وحال المؤمنين به والكافرين ومنقلبهم يوم القيامة؛ بذكر منزل القرآن ومصدره، وربط خاتمة السياق بأوله. واشتملت الآية على بعض الأساليب الشارحة للمعنى العام بصورة أدقّ وأكثر تفصيلاً، تأتي مع مطلع الآية حتى نهايتها، وهي:

(١) ينظر: الطبري، مرجع سابق. ٨/١٨.

العطف والاستئناف:

بدأت الآية بحرف الواو، وفُسِّرت على قولين؛ الأول أنّها واو عطف، والثاني أنّها واو استئناف، فمن قال بالعطف أرجع ذلك إلى كون الآية متصلة بالآية الأولى في مفتتح السورة "تلك آيات القرآن"، وغرضه الانتقال من بيان أهميّة القرآن والتّويه به، إلى التّويه بمن أنزل عليه القرآن. ^(١) ومن قال بالاستئناف فسّر ذلك لارتباط سياق السّورة بسياق آيات سورة الشعراء، في الكلام عن القرآن وتنزيله، وحال متلفّيه من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الشعراء: ١٩٢). فالكلام في سورة النّمل مستأنف لما سبقه من كلام في القرآن وبيان شأنه ومكانته، وغرضه التّبيه إلى ما تضمّن من دلالات. ^(٢) والمعنى يحتمل الوجهين؛ لأنّ المتمعّن في معنى الآيات يجده متّسقاً لا انقطاع فيه، فيصحّ أن يكون استئنافاً وتوكيداً لآيات سورة الشعراء من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ويصحّ أيضاً أن يكون عطفاً على الآيات المتحدّثة في أول السّورة عن القرآن، وحال النّاس من آخذين به ومصدّقين بما فيه وما جاء به، والمكذّبين به والكافرين، وما يترتّب على موقف كليهما من هداية وضلال. إلّا أنّ الأقوى في الدّلالة من حيث السّياق الحالي، هو ما اتّصل اتّصلاً مباشراً، فيكون العطف أقوى مكانة من الاستئناف، وتجيء الآية معطوفة لتتمّ المعنى الذي افتتحت به السّورة، فهذا القرآن وآياته من لدن الله ذو الحكمة والعلم. وعليه فإنه لا تعارض بين الرأيين، وإنما ينظر إلى الواو حسب حال السّياق المحدّد، فإن كان سياق الآية للسّورة فقط فهو عطف، وإن كان سياق الآية لما كان من آيات في سور سابقة فهو استئناف.

التّوكيد بأكثر من مؤكّد:

عقب العطف أسلوب التّوكيد، حيث اشتملت الآية على مؤكّدين: إنّ المتقلّة، ولام التّوكيد. وتسري القاعدة في علم البلاغة أنّ التّوكيد بأكثر من مؤكّد يكون لمشكّك في الخبر أو منكر له، وقد يُخرج عن القاعدة أحياناً لغرض يتطلّبه التّوكيد غير الإنكار، أو بما يقتضي مراعاة المقام دون النّظر في حال المخاطب، من إنزال المنكر

(٢) ينظر: ابن عاشور، مرجع سابق. ٢٢٣/١٩.

(٣) ينظر: أبو السعود محمد العبادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ط٤ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٤هـ) ٦/٢٧٣. وشهاب الدين محمود شكري الألويسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ) ١٥٥/١٩.

غير منزلة المنكر، أو إنزال غير المنكر منزلة المنكر، أو النظر في حال المتكلم، والاهتمام بالمعنى وتقوية مضمون الكلام.^(١) والآية تحتل وجهين معاً؛ فتفسيرها بأن التوكيد لغرض الإنكار هو في الردّ على الكافرين والمشركين،^(٢) حيث سبقت الإشارة إليهم في سياق الآيات في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ (سورة النمل: الآية ٤)، إضافة إلى كونهم متلقّي هذا الخطاب وسامعيه، فيكون توكيد الخبر على ما كان من سابق علم بحالهم من التكذيب بالقرآن ومضمونه وحقيقة تنزيله. أمّا الوجه الآخر؛ فالغرض منه تثبيت للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وتصديقه وطمأنته،^(٣) وبيان أن جانبه هو الحق؛ لما تعرّض له من تكذيب ونكران، وإبراز للكلام وتقوية مضمونه والعناية به، وتقريره في نفس النبي -صلى الله عليه وسلم- ومن تلقى هذا الخطاب من غير منكره.^(٤) وبصورة عامّة، فالسياق توكيديّ لحقيقة محضة؛ القرآن منزل من عند الله ذو الحكمة والعلم، وهو قرآن بين الآيات، عظيم الشأن، وبهذا ارتبطت الآية بأول آية من السورة، وكان السياق واحداً غير منقطع، والتوكيد في آخره لتثبيت ما كان في أوله.

وقرّن التوكيد بالفعل المضارع "تلقّى" مبنياً لغير المذكور، بمعنى "التوتاه وتلقنه".^(٥) وجاء الفعل على وزن التّعديّة؛ لأنّ تخفيف الفعل يعني أنّ المتلقّي واحد، وتضعيفه يجعله متعدّ إلى اثنين، بمعنى أنّ النبي -صلى الله عليه وسلم- لقي جبريل -عليه السلام- وتلقّى منه القرآن، فدلّ بذلك على الجمع بين اثنين.^(٦) وأرجأ بعض العلماء البناء للمجهول إلى كون الفاعل مذكوراً في سياقات سابقة، وهو جبريل -عليه السلام-، حيث أتى ذكره في سورة الشعراء في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (الآية ١٩٣).^(٧) وحذف الواسطة من سبيل التّعظيم وتحويل الدّهن إلى الأهم

(١) ينظر: يوسف بن أبي بكر السكاكي، مفتاح العلوم، ط ٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م) ١٧١-١٧٤. ومحمد محمد أبو موسى، خصائص التراكيب، ط ١٠ (القاهرة: مكتبة وهبة،

٢٠١٧م)

(٢) ينظر: ابن عاشور، مرجع سابق. ٢٢٣/١٩.

(٣) ينظر: المرجع السابق. وأبو موسى، مرجع سابق. ١٣٠.

(٤) ينظر: ابن عاشور، مرجع سابق. ٢٧٣/١٩.

(٥) أبو القاسم جار الله محمود الزمخشري، الكشاف، ط ٣ (بيروت: دار المعرفة، ٢٠٠٩م) ٧٧٥.

(٦) ينظر: البقاعي، مرجع سابق. ١٢٨/١٤. وأحمد بن محمد بن عمر الخفاجي، حاشية الشهاب نناية القاضي وكفاية الرازي على تفسير البيضاوي (بيروت: دار صادر، دت) ٣٣/٧.

(٧) ينظر: محمد بن يوسف الأندلسي أبو حيان، البحر المحيط في التفسير (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٠م) ٨/٢٠٩.

في الدلالة، فلو كان الغرض ذكر الوسطة في التّزليل لذكر جبريل -عليه السّلام-، لكن لأنّ الغرض توكيد لحقيقة تنزيل القرآن من الله -عزّ وجلّ-، وتلقّي النّبّي -صلّى الله عليه وسلّم- لهذا القرآن، كان الأبلغ حذف الوسطة وبناء الفعل للمجهول، خاصّة وأنّ السّيقات المتقدّمة بيّنت أنّ جبريل -عليه السّلام- كان هو الوسطة في عمليّة التّلقّي والتّزليل. وذكر القرآن بعد الفعل وصلّ للسياق بأول آية لما ذكر القرآن في مفتتح السّورة.

التعبير بـ(لن):

قال تعالى بعد ذكر القرآن: "من لن"، أي أنّ القرآن من عند الله - عزّ وجلّ -، وأصل لن بمعنى لدى وعند،^(١) وتطلق للدلالة على المكان، إلا أنّ العلماء خصّوها بالحدّ الأعلى فقالوا: كلّ ما كان من عند الله -عزّ وجلّ- من الغرابة على حدّين، فحدّه الأدنى يُعبّر عنه بلفظ (عند)، وحدّه الأقصى يُعبّر عنه باللفظ (لن).^(٢) ولمّا كان القرآن معجزاً في تنزيهه ولغته وما تضمّن من أخبار، كان استعمال لفظ (لن) أبلغ من (عند)؛ لأنّه على محمل الغرابة أشدّ من الاعتياد. والإتيان بلفظ (لن) بين "من" و"حكيم"، تنبيه على شديد انتساب القرآن إلى الله -جلّ جلاله-.^(٣)

وفي اختيار (لن) دون (عند) في هذا السياق، ارتباط وثيق بموضوع العلم؛ فلم يذكر لفظ لن مجرداً من الزيادات في القرآن إلا في موضعين، كلاهما مقترنان بصفة الحكمة لله عزّ وجلّ، وأحدهما هو هذه الآية، والآخر في قوله تعالى من سورة هود: ﴿الرَّكُوبُ أَهْلَيْهٖ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمِ خَبِيرٍ﴾ (آية ١). وجاءت لن في ستّة عشر موضعاً مقترنة بالزيادات،^(٤) مثل: لدنك، لدنّا، لدنه، وجميعها في سياقات الهبة والطلب من الله تعالى، إلا موضعاً واحداً في سورة الكهف على لسان موسى -عليه السّلام- مخاطباً الخضر: ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ (آية ٧٦). ولمّا كان العطاء والهبة من عند الله تعالى، واقتربت لن بسياقاته ومعانيه المختلفة، دلّ هذا دلالة واضحة على أنّ القرآن الكريم هبة من الله -عزّ وجلّ- لنبيّه -صلّى الله عليه وسلّم-، ومن علمه الّذي

(١) ينظر: ابن فارس، مرجع سابق. ٢٤٣/٥.

(٢) ينظر: البقاعي، مرجع سابق. ١٢٨/١٤.

(٣) ينظر: ابن عاشور، مرجع سابق. ٢٢٣/٢٣ - ٢٢٤.

(٤) ينظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم الفهرس لألفاظ القرآن الكريم (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت) ٦٤٦.

اختصّ به دون سواه، ومِنَّة منه سبحانه، بما ساق فيه من أخبار وقصص، ونظم وشرائع، وبيان لأحوال النَّاس وتصوير مآلهم، إذ لا يمكن الإحاطة بكل ذلك إلا من قِبَل العليم الحكيم، ولا يوهب ويعطى إلا من صاحبه العالم به ومالكه جلّ جلاله.

الوصف بالحكمة والعلم:

اختتمت الآية بوصف الله -عزّ وجلّ-: "حكيم عليم"، والتفصيل في دالتهما على جزئين: تنكير صفتي الحكمة والعلم في الآية، وتقديم الحكمة على العلم. إذ جاء الوصف بالتنكير لا التعريف؛ لغرض التّفخيم والتّعظيم، وإعلاء لشأن القرآن وشأن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من تلقّيه ومعرفة ما جاء فيه،^(١) ولو كان الوصف معرّفًا لما اختلّ المعنى، ولكنه لم يلقَ من العظمة ما يدلّ عليه التّنكير، فقولك: من لدن الحكيم العليم، لا يعطي ذات التّفخيم في: "من لدن حكيم عليم"، ولما كان السياق يُعلي من شأن القرآن وتنزيله وتلقّيه، كان التّفخيم في الوصف أبلغ وأعمق في الدلالة. وقُدِّمَت الحكمة على العلم مع أنّه داخل فيها وأعمّ منها، وللعلماء في هذا شرح طويل، خلاصته أنّ الحكمة مختصةٌ بإتقان الأفعال، والتّشريع والأحكام، وكلّ ما تعلق بالعقائد، والعلم أعمّ منها؛ لأنّه يشتمل ما لا يندرج تحت مسمّى الحكمة من الأخبار والقصص والغبيّيات، فتكون الحكمة مختصةً بالأمر العمليّة فقط، ويكون العلم شاملاً للعمليّ والنظريّ معًا.^(٢) ولما كان سياق أواخر الشّعراء منتهيًا بالحديث عن الظالمين، وسياق أول التّمل متحدّثًا عن الهداية، كانت الحاجة إلى الحكمة أقوى في السياق من مطلق العلم؛ لأنّ الظّالم لا يُهتدى به ولا يُقتدى، ويلزم في الهادي أن يكون ذا علم حتّى يُقتدى به.^(٣)

ولأنّ السياق سياق أفعال تتضمّن الهداية والغواية، والتّنزيل والتّشريع، كان أنسب للمعنى أن تُقدّم الحكمة المختصةً بهذا الجانب العمليّ من العلم، وأن يؤخّر العلم عنها ليكمّل المعنى بكلا الجانبين النظريّ والعمليّ، وبمهدّ لما سيأتي من أخبار

(١) ينظر: البقاعي، مرجع سابق. ١٢٩/١٤. ومحمد بن مصلح الدين القوجوي، حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م) ٣٧٤/٦. وأبو السعود، مرجع سابق. ٢٧٣/٦. وابن عاشور، مرجع سابق. ٢٢٤/١٩.

(٢) ينظر: فخر الدين محمد الرازي، مفاتيح الغيب (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٨١م) ١٨٠، ١٨١. والبقاعي، مرجع سابق. ١٢٩/١٤. والقوجوي، مرجع سابق. ٣٧٤/٦. وأبو السعود، مرجع سابق. ٢٧٣. والألوسي، مرجع سابق. ١٥٥/١٩. وابن عاشور، مرجع سابق. ٢٢٤/١٩.

(٣) ينظر: البقاعي، مرجع سابق. ١٢٩، ١٢٨ / ١٤.

لا تتدرج في معنى الحكمة^(١) ولكنها تدخل في معنى العلم، ويتم للسياق دلالة كمال الحكمة وسعة العلم وعظمته لله - عز وجل -.

وفي تقديم الحكمة على العلم في هذا المعنى تناسب مع الجور العام للسورة في بيان سلطان العلم، ومن ذلك مقارنة تقديم ألفاظ الحكمة على العلم في سورة الأنعام، بتأخيرها عن ألفاظ العلم في سورة يوسف، بأن سياقات السورتين والموضوع العام للسورة يوجبه هذا التقديم والتأخير. حيث جاءت الحكمة مقدّمة على العلم في سورة الأنعام؛ لأنّ السورة تتحدّث عن التشريع وحكمة الله تعالى وحاكميته، وحكمته في إتيان إبراهيم - عليه السلام - الحجّة على قومه، وعلمه سبحانه بأنّه مستحقّ لذلك. أمّا سورة يوسف فقدّم العلم فيها على الحكمة لأنّ موضوع السورة هو العلم وتعليم يوسف - عليه السلام -^(٢). ولو قارنا سورة النمل بسورتَي الأنعام ويوسف، لأتضح أنّها لمعاني سورة الأنعام أقرب، من حيث إنّها بُدئت بألفاظ التشريع من إنزال الكتاب، وإقامة الحجّة على الناس، ومحاسبتهم يوم القيامة، وتقخير العبارة في فعل التلقّي والإيتاء، ففي سورة الأنعام جاء السياق في تعظيم معنى التنزيل من الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُهَا آتِنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ آية ٨٣، مقارباً للتعظيم في بناء الفعل للمجول "تلقى". وبذلك يُبرر تقديم الحكمة عطفاً على ما سبق من أنّ السياق سياق تشريع وأفعال، والحكمة مختصة بالفعل على العلم.

واجتمعت في الآية صفتان من صفات الله - عز وجل -، واقتران الصفات لله تعالى يعني كماله - عز وجل - فيها منفردة ومجمعة، وثناء خاص بها في انفرادها، وثناء خاص زائد عليها في اجتماعها.^(٣)

محلّ العلم من السياق:

افتتحت السورة بالحروف المقطّعة، ويتفق عدد من المفسرين - على اختلاف أقوالهم في المقصود بها - أنّها من الغيب الذي اختصّ الله تعالى بعلمه، وختم مطلع السورة بوصفه سبحانه بالحكمة والعلم، وهذه البداية إظهار لموضوع العلم من السورة، بدءاً من العلم الذي منّ الله به على نبيه - صلى الله عليه وسلم -، وهو القرآن الكريم، وما كان له من بيان وعظمة. والعلم بأحوال المؤمنين به والكافرين، وما ترتب على

(١) ينظر: القوجوي، مرجع سابق. ٣٧٤/٦. وابن عاشور، مرجع سابق. ٢٢٤/١٩.

(٢) ينظر: فاضل السامرائي، التعبير القرآني، ط٤ (عمان: دار عمار، ٢٠٠٦م) ٢٢٧. وصلاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني (عمان: دار عمار، ٢٠٠٠م) ٣٢٤-٣٢٦.

(٣) ينظر: البدر، مرجع سابق. ٥٠.

التّصديق من هداية، والكفر من تخبّط وغواية، دلالة على منزلة العلم من السّورة، وشمول حكمته -جلّ جلاله- وكمال علمه. فالنتوي بهذا العلم والتّقديم به؛ تمهيد لما يأتي من الغيبيّات والأخبار في السّورة، وتأسيس لما جاء فيها من أنواع للعلم ودرجاته، وربط لجميع سياقات الآيات في السّورة ببعضها، مع تنوّع مقاصدها ومضامينها.

ثانياً: الجمع بين العرّة والعلم:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ سورة (النمل: آية ٧٨)، معنى الآية أن الله عز وجل سيحكم يوم القيامة بين المختلفين من بني إسرائيل فيما علموا من الأخبار والقصص، بعدله وحكمه الحق، وعلمه بمقاصدهم وأقوالهم وما يخفون ويعلنون، ولا يغلبه في قضائه ولا يمنعه عنه أحد.^(١) والأساليب التي تضمّنتها الآية كالآتي:

التّوكيد بأكثر من مؤكّد:

ابتدأت الآية بحرف التّوكيد (إِنَّ)، وهو استئناف بياني، سببه الإجابة على التّساؤل الحاصل في نفوس المؤمنين عن نهاية الاختلاف الحاصل بينهم وبين الفريق الآخر من بني إسرائيل.^(٢) ومراعاة حال المخاطب في السياق تقتضي وجود هذا التّوكيد؛ لأنّ المؤمنين في حالة تردّد توجب معه إزالته،^(٣) وكأنّ هذا الخلاف من طولته وتكاثر الأقوال والخصام فيه لن ينتهي، فأكدت الآية انتهاءه بقضاء يقضيه الحّكم العدل سبحانه. أو هو من ضرب إنزال غير المنكر منزلة المنكر،^(٤) فالمؤمنون -ومنهم النّبّي صلّى الله عليه وسلّم-، يعلمون أنّ الله قاضٍ بينهم فيما اختلفوا، وأنّ لا بدّ للحقّ من أن يظهر وينتصر، ولكن قد تظهر عليهم علامات للتردّد أو استبطاء هذا القضاء، فيجيء أسلوب التّوكيد مؤكّداً على تحقّق هذا القضاء وغلبة الله -عزّ وجلّ- ونفاذ حكمه وعدله.

وقدّم المسند إليه (رَبِّكَ) على فعله (يقضي)، ويحتمل هذا التّقديم معنيين. فالمعنى الأول أنّه على سبيل التّوكيد؛ لأنّ التّقديم فيه تكرر لهذا التّوكيد، وملاءمة

(١) ينظر: الطبري، مرجع سابق. ١٨ / ١١٧. وأبو السعود، مرجع سابق. ٢٩٩. وعبد الرحمن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ط ٢ (الدمام: دار ابن الجوزي، ١٤٢٦هـ) ٧١٣.

(٢) ينظر: ابن عاشور، مرجع سابق. ٣٢/١٩.

(٣) ينظر: أبو موسى، خصائص التراكيب، ط ١٠ (القاهرة: مكتبة وهبة، ٢٠١٧م) ١٢٠.

(٤) ينظر: المرجع السابق. ١٢٤.

للسياق من توكيد فصل الله بين النَّاس يوم القيامة، والقضاء بينهم بالعدل والحكمة، وأن لا مناص من هذا الحكم، ولا تشكيك في نهاية هذا الاختلاف بالحق، وهو ذاته المعنى الذي أشير إليه سابقاً من احتشاد المعاني على طريق التوكيد. أمَّا المعنى الثَّاني فهو معنى الاختصاص؛ أي أنَّ فعل القضاء يوم القيامة فعل مختصُّ به سبحانه، لا يشاركه فيه أحد، ولا رادَّ لحكمه أحد، يقضي بين خلقه بسلطانه وجبروته، وعظمته وعزَّته وعدله. والمعنيان متضمَّن أحدهما الآخر، ولأبي موسى في هذا تعليق يتفق مع ما ذكر هنا، يقول فيه: "ثم إن الصور التي تفيد الاختصاص لا تخلو من التوكيد والتقرير وإن كانت الدلالة الواضحة هي الاختصاص لأن الحقيقة هي أن الاختصاص متضمن التوكيد".^(١) وعُطف بضمير الفصل (هو) زيادة في تثبيت جانب اختصاصه، أي أنَّه لا يقضي بين النَّاس إلَّا العزيز العليم، وتوكيد غلبة الله تعالى، وقهره وسلطان علمه وعلوه على خلقه.

وفي الآية توكيد سياقي لم تستعمل فيه ألفاظ التوكيد ولا معانيه التحوّية، ولكنّه مستنبط من احتشاد الألفاظ والمعاني، مثل الإتيان بالفعل المضارع (يقضي)، مع إمكان الاستغناء عنه بالفعل (يحكم)، وإلحاق لفظ الحكم به (بحكمه) في مزيد تفصيل، ومعنى القضاء الحُكم، وإحكام الأمر وإتقانه.^(٢) ومعنى الحُكم المنع من الظلم.^(٣) ولو فُرق بين اللَّفظين في المعنى وحُملا على وجه التوكيد، لكان المعنى أنَّ الله سبحانه يحكم أمره في الفصل بين المختلفين والمتنازعين، فلا ظلم واقع ولا حاصل عن هذا الحكم، وفيه إشارة أن حُكمه سبحانه متحقِّق من قبل هذا القضاء، فلا يقع متأخراً إنّما هو أصل سابق لكلِّ فعل، فالله سبحانه هو العدل. ومجيء لفظ الحكم مجروراً دالًّا على المصاحبة؛ فقضاء الله مستمرُّ يصاحبه حكمه وعدله، إذ لا يمكن أن يكون قضاؤه إلَّا عدلاً، والإتيان باللّفظين دليل على غلبة هذا العدل، وقهر الملك سبحانه، وسلطانه إذ كان قضاؤه وحكمه عن واسع علمه تعالى.

وتساعد نبرة التوكيد في الآية قد لا تكون بسبب حال المخاطب من أنه منكر أو متردّد من هذا الخبر، وإنّما قد تكون من قبيل تقرير الخبر في نفس النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلّم-،^(٤) وتقوية مضمونه وإن كان غير منكر له، وإعانة على حمل أعباء

(١) أبو موسى، خصائص التراكيب. ٢٦٤.

(٢) ابن فارس، مرجع سابق. ٩٩/٥.

(٣) المرجع السابق. ٩١/٢.

(٤) ينظر: أبو موسى، مرجع سابق. ١٣٠-١٣٢.

الدعوة، وتبليغ الرسالة، ويعاضد هذا المعنى قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ (سورة النمل: آية ٧٩).

استعمال لفظ الربوبية:

وَجَّه الخطاب في الآية إلى النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ليكون مبلِّغاً به، وتسلياً له،^(١) فلو استعمل لفظ الجلالة في هذا السياق لما كانت له ذات دلالة لفظ الربوبية؛ لأنَّ الرَّبَّ هو المتصرّف في أمور العباد، وخالقهم ورازقهم، وهو أمر يقرّره القرآن العظيم ومتسق مع مقاصده العقدية في السورة. إضافة لكون الآية موجّهة للنبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في جانب الموانسة والمؤازرة، والتذكير فيه بأنّه صاحب الربوبية يتناسب مع معنى أنّ الله - عزَّ وجلَّ - لن يترك خلقه في خلاف دون أن يحكم بينهم وهو ربه، والقاضي بينهم.

القضاء بالحكمة والعدل:

القضاء هو الحكم كما أشير سابقاً، و(بين) تقال للمتعدّد، بما يعني وجود فريقين أو أكثر، وأسند القضاء لله - عزَّ وجلَّ - في لفظ "رَبِّكَ"،^(٢) وعُلِّقَ به "حكمه"، وفُرئت بوجهين: "إن ربك يقضي بينهم بحكمه"، و "إن ربك يقضي بينهم بحكمه"، والأخيرة قراءة جناح بن حبيش،^(٣) وعلى هذا تعددت الآراء في تفسير معنى "حكمه" في الآية، فقيل هي بمعنى الحكمة على ما قرأ ابن حبيش؛ لأنَّ القضاء يتطلّب وجود الحكمة. وقيل هي بمعنى الحكم بالعدل، لما عُلم عن أنّ حكم الله - جلَّ جلاله - هو العدل،^(٤) وكلا المعنيين يتفقان ولا يختلفان؛ لأنَّ الحكم بالعدل يستلزم الحكمة، فمعناه أنّ الله سبحانه يقضي بين المختلفين بحكمه العدل، وعلمه الواسع، وحكمته التامة.^(٥) ومما سبق في الإشارة لمعنى الحكمة؛ يظهر التنااسب بين فعل القضاء، والحكمة التي هي إتقان الأفعال. والعدل من متطلّبات الإتيان، فلا يكون الفعل متقناً ما لم يتحقّق

(١) ينظر: ابن عاشور، مرجع سابق. ٣٢/٢٠.

(٢) ينظر: ابن عاشور، مرجع سابق. ٣٢/٢٠.

(٣) ينظر: إبراهيم إسماعيل الأبياري، الموسوعة القرآنية (القاهرة: مؤسسة سجل العرب، ١٤٠٥هـ) ١١٥/٦.

(٤) ينظر: القوجوي، مرجع سابق. ٤١٨/٦. والألوسي، مرجع سابق. ٢٣٠، ٢٢٩/١٤. والزمخشري، مرجع سابق. ٧٩٠. وابن عاشور، مرجع سابق. ٣٢. والخفاجي، مرجع سابق. ٥٨/٧. وشرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (دبي: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم - وحدة البحوث والدراسات، ٢٠١٣م) ٥٨٠/١١.

(٥) ينظر: ابن عاشور، المرجع السابق. ٣٢/٢٠، ٣٣.

فيه العدل، ولا تتم الحكمة ما لم يكن العدل قرينها، وبهذا لا تعارض بين التفسيرين، وإنما يسيران في جانب واحد.

الوصف بالعهزة والعلم:

لما كان السياق مشتملاً على القضاء والحكمة، خُتمت الآية بما يتناسب مع معنيهما، "فإن العزيز لا يصانع، والعليم لا يفوته الحق"،^(١) فجاء وصف العزة مبيناً حال القضاء والحكم، وجاء وصف العلم ليبين أن هذا القضاء والحكم هو عن علم كامل،^(٢) فالله - عز وجل - غالب لا يقهر حكمه، ولا يردّ قضاؤه، ولا يمنع عدله، ولا تخفى عليه خافية، وهو عالم بما كان من الفريقين، فاصل بينهم بعلمه الحق. وفي اجتماع الوصفين دلالة على كمال عزته وعلمه تعالى، وكمال سلطان علمه وعلو قهره وغلبته.

محل العلم من السياق:

تبين مما سبق محل العلم في الآية، ووجه دلالاته وارتباطه بمعانيها، أما عن صلته بسياق الآيات؛ فقد تقدّم الحديث عن علم الله - عز وجل - في الآيات، وحال بني إسرائيل مما أخبر به القرآن من أنباء الأولين، وهو علم غيبي لا يعلم حقيقته إلا الله سبحانه. فتواتر العلم في السياق يفضي إلى تنويع صياغته بالفعل تارة، والوصف تارة أخرى، كما اختتمت هذه الآية بصفة الله العليم. وكأنّ الرابطة بين كل الأخبار السابقة في السياق والتالية لها، هو العلم، وحضوره في كل سياق تأكيد على هذه الرابطة، وتنويه بمصدر هذه الأخبار، وتوثيق لاختصاص القرآن بعرضها. فقد ذكر القرآن في هذا السياق كما ذكر في سياق أول السورة مقروناً بعلم الله تعالى، متصلاً به، ولعلّ ذلك يُلاحظ في جميع سياقات السورة التي ورد فيها القرآن، أنه لا يرد إلا ويأتي بعده ذكر علم الله سبحانه.

خاتمة:

الحمد لله الذي منّ وأنعم بهذا الجهد، والذي تُوصل من خلاله إلى بعض النتائج، من أهمها:

- تأكيد حقيقة مصدرية القرآن الكريم، بوصفه علماً لدنياً لا يصدر إلا عن العليم عز وجل، بما اشتمله من أخبار وغيبيات.

(١) المرجع السابق. ٣٣/٢٠.

(٢) ينظر: الأوسى، مرجع سابق. ٢٣٠/١٤. والزمخشري، مرجع سابق. ٧٩٠. والخفاجي، مرجع سابق. ٥٨/٧.

- اقتران صفة العلم لله عز وجل مع غيرها من الصفات يفضي إلى معنى ثالث كمالاً في العلم.
- تناسب أوصاف الله عز وجل في خواتيم الآيات مع مقتضى السياقات وتصريف معانيها المرتبطة بالعلم.
- ظهور أسلوب التوكيد بتعدد أدواته للتأكيد على مطلق العلم لله عز وجل في مختلف السياقات.
- تتمحور السورة حول مقصد واحد هو العلم، ويظهر ذلك من تناسب فاتحتها مع خاتمها، حيث ابتدأت بالعلم واختتمت به، واتصال ما بينهما من الآيات بسياق واحد هو العلم.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- إبراهيم إسماعيل الأبياري، الموسوعة القرآنية (القاهرة: مؤسسة سجل العرب، ١٤٠٥هـ).
- أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي، حاشية الشهاب عنابة القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي (بيروت: دار صادر، د.ت).
- بدر الدين محمد الزركشي، البرهان في علوم القرآن (بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٠م).
- برهان الدين أبو الحسن إبراهيم البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، ١٩٨٤م).
- أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي، الكليات، ط٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٨م).
- أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ١٩٨٧م).
- تقي الدين أحمد بن تيمية، مجموعة الفتاوى، ط٣ (المنصورة: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥م).
- جلال الدين السيوطي، الإتيان في علوم القرآن (بيروت: مؤسسة الرسالة ناشرون، ٢٠٠٨م).
- الحسين علي البيهقي، الأسماء والصفات (القاهرة: دار الحديث، ٢٠٠٥م).
- أبو السعود محمد العبادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ط٤ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٤هـ).
- شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (دبي: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم - وحدة البحوث والدراسات، ٢٠١٣م).
- الشريف علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، ط٢ (بيروت: دار الريان للتراث، ١٤٠٣هـ).
- شهاب الدين محمود شكري الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ).
- صلاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرياني (عمان: دار عمار، ٢٠٠٠م).
- عبد الرحمن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ط٢ (الدمام: دار ابن

(الجوزي، ١٤٢٦هـ)

- عبد الرزاق عبد المحسن البدر، فقه الأسماء الحسنی، ط٢ (الرياض: دار التوحيد، ٢٠٠٩م)
- عبد الهادي حسن وهيبي، الأسماء الحسنی والصفات العلی (الجبیل: دار الدلیل الأثرية، ٢٠٠٧م)
- فاضل السامرائي، التعبير القرآني، ط٤ (عمان: دار عمار، ٢٠٠٦م)
- فخر الدين محمد الرازي، مفاتيح الغيب (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٨١م)
- أبو القاسم جار الله محمود الزمخشري، أساس البلاغة (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م)
- أبو القاسم جار الله محمود الزمخشري، الكشاف، ط٣ (بيروت: دار المعرفة، ٢٠٠٩م) ٧٧٥.
- ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين (الرياض: دار الصمعي للنشر والتوزيع، ٢٠١١م)
- محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (الرياض: عالم الكتب، ٢٠٠٣م)
- محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل أي القرآن (القاهرة: دار هجر، ٢٠٠١م)
- محمد الحمود النجدي، النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنی، ط٢ (الكويت: مكتبة الإمام الذهبي، ٢٠٠٩م) ١٥٠.
- محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير (تونس: الدار التونسية للنشر، د.ت)
- محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم الفهرس لألفاظ القرآن الكريم (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت)
- ومحمد أبو موسى، خصائص التراكيب، ط١٠ (القاهرة: مكتبة وهبة، ٢٠١٧م)
- محمد مرتضي الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس (الكويت: مطبعة حكومة الكويت، ٢٠٠١م)
- ومحمد بن مصلح الدين القوجوي، حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م)
- محمد بن يوسف الأندلسي أبو حيان، البحر المحيط في التفسير (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٠م)
- أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله، البرهان في أصول الفقه (الدوحة: مطابع الدوحة الحديثة، ١٣٩٩هـ)
- يوسف بن أبي بكر السكاكي، مفتاح العلوم، ط٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م)